د. حسن بكر الشريف *

الصلات القديمة بين أوربا والبلاد العربية الإفريقية

للوقوف على الصلات المبكرة بين أوربا والعالم العربى لابد من أن تكون نقطة البدء هى الاتجاه نحو الأقطار العربية الواقعة فى نطاق حوض البحر المتوسط. وعلى وجه التحديد تلك الدول الواقعة على شواطئه الجنوبية والشرقية ، فى عقد تلك الصلات، وذلك لما يتوفر لها من إمكانية إقامة صلات مباشرة فيما بينها وبين جنوب أوربا**.

ويبدو أن هذه الصلات لم يكن لها وجود فى عصر ما قبل التاريخ. ولكنها أخذت فى الظهور منذ أواخر العصر أى فى فجر العصر التاريخى العام للشمال الأفريقى.

وفى ساحة السباق الحضارى لكل من العالمين : الأوربى والشمال الأفريقى؛ يبدو أن كلا منهما كان يتمتع بشخصية حضارية مستقلة تماما عن الآخر. على الرغم مما كان يحدث

---

* أستاذ مساعد بكلية التربية بدمنهور- جامعة الاسكندرية.

** الواقع أن الجغرافيين يتحدثون عن ثلاثة معابر يمكن أن تكون طرق وصل فيما بين الجنوب الأوربى والشمال الأفريقى، تلك هى شبه جزيرة البلقان وجزر إيجا، ومقدمة شبه الجزيرة الإيطالية ورأس بونو فى تونس عبر جزيرة صقلية، ثم مضيق جبل طارق.

أحيانا، وفى بعض المراحل من ظهور توهج حضارى -بلامقدمات- فى أحد العالمين ، دون يكون له أى صدى فى العالم الآخر المقابل له.

ويسهل على الدارس المتتبع للتطور الحضارى لكل من العالمين - الأفريقى والأوربى- أن يلحظ هذه الحقيقة، وأن كلا منهما سار فى طريق حضارى مستقل تمامًا عن الآخر، دون أن يؤثر أو يتأثر بالجانب الآخر، على أنه يمكن القول إن أقطار العالم أخذت فى التباين الحضارى، أو ما يمكن أن نعده تمايزاً إقليميًا، فى مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط. ففى تلك الحقبة شهدت أوربا صناعات خاصة بها، أخذت مسمياتها من مواقع أوروبية حقيقية، عرفت بالصناعات الموستيرية أو الموستيرية- اللفلوازية. ويبدو أن هذه التقنيات الجديدة كانت بمثابة مرحلة حضارية عمت جميع أنحاء العالم القديم، وارتبطت بظهور إنسان نياندرتال، لأننا نلحظ أن أقطار الشمال الأفريقى شهدت هذا التطور العام، ولكنها سرعان ما اتخذت لنفسها خطا تقنيا خاصا، حيث ينبثق من أحد مناطقها صناعات محلية متميزة، تبعدها عما شهدته بقية مناطق العالم الأخرى .

وهذه الصناعات الجديدة، عرفها المشتغلون بعصور ما قبل التاريخ باسم الصناعات العاتيرية نسبة إلى مكان كشفها ، وتميزت بأداة خاصة يسهل التعرف عليها. والعجيب فى أمر هذه الصناعات أنها غطت كل أرجاء الشمال الأفريقى وصولا إلى وادى النيل شرقا[1]، واتجهت جنوبا متخطية ما يعرف حاليا بالصحراء الكبرى (أنظر الخريطة) ولكنها شمالا لم تتعد خط الساحل .

وفى حقبة العصر الحجرى القديم الأعلى (الباليوليتى الأعلى) شهدت أقاليم غرب أوربا ازدهارا حضاريا متألقا فى حقب حضارية ثلاث متتالية: مرحلة الحضارة الأورنياسية Au-rignacien، ثم السوليترية Solutréen وأخيرا المجدالينية Magdalénlien وتتسم هذه المراحل الثلاث بتفجر طاقة تقنية وإبداع فنى، شهدت به مجموعات الأدوات الحجرية والعظمية المنقوشة، وفن حوائط الكهوف الذى خلفه إنسان ذلك العصر*. وكان هذا التطور يجرى بينما

---

* شهدت أقطار الشمال الأفريقى بعامة ظاهرة فنية أخرى ، مضاهية لظاهرة فن حوائط الكهوف، وهى ظاهرة النقوش والرسوم الصخرية . لكن ينبغى التنويه بوجود فروق جوهرية بين الظاهرتين ، يبعد أى شبه علاقة بينهما :

=

أقطار الشمال الأفريقى تمر بمرحلة تطور حضارى محلى تماما، تمثل فى تطور تقنى للصناعات العاتيرية التى كانت فى العصر الحجرى القديم الأوسط، تخطو نحو صناعات حجرية بدائية فى خواتيم العصر الحجرى القديم الأعلى، وبالنسبة لانتاجها من الأدوات العظمية جاء فقيرا فى تنوعه وخاليا من النقوش.

وليس معنى ذلك أن هناك فواصل ظلت قائمة بين أوربا والشمال الأفريقى بحيث اتجه كل منهما وجهة حضارية خاصة به.

وهناك رأى درج عليه بعض الباحثين [٢]، يفسر الصناعات القفصية* Capsien، التى انتشرت فى أرجاء الشمال الأفريقى، فى حدود الألف السابع ق.م. تقريبا، على أنها النظير الأفريقى للصناعات الأورنياسية الأوربية، وهى أولى المراحل الحضارية للباليوليتى الأعلى الأوربى؛ والذى يقدر له علماء ما قبل التاريخ أنه بدأ فى أوربا منذ أربعين ألف عام أو خمسة وثلاثين ألفا من وقتنا الحاضر. واعتمد أصحاب هذا الرأى على وجود مشابهة بين أداة (الإزميل أو المحت) فى كل من الصناعتين. والمحت هو أداة الصناعات الأورنياسية المميزة، وكان أساسا أداة النقش على الأدوات العظيمة، وخاصة تلك التى من قرون الرنة.

= - تعاصر فن رسوم الكهوف فى أوربا، مع آخر عصر جليدى فى أوربا، والذى انتهى منذ حوالى عشرين ألف عام، فجاءت موضوعاته الحيوانية مقتصرة على حيوانات مرحلة الصيد . بينما فى شمال أفريقيا فإن هذه الظاهرة، لاتذهب عند أكثر الآراء تفاؤلا أبعد من الألف العاشر ق.م ثم هى تستمر فى التواجد لترصد بعد مرحلة الصيد مرحلة الرعى ثم مرحلة الحصان ثم مرحلة الجمل الذى عاصر الجفاف.

- اقتصار الأعمال الفنية فى أوربا على حوائط الكهوف وأسقفها ، واستخدامها للرسم فى التعبير مع استخدام ألوان طبيعية. بينما كان الحال فى شمال أفريقيا الاقتصار فى المراحل الأولى على أعمال النقش ، ثم فيما بعد مورس الرسم، وجاءت هذه وتلك فى مناطق مكشوفة بعيدة عن الكهوف .

- اقتصرت الظاهرة فى أوربا على تصوير حيوانات وبعض مشاهد الصيد ، بينما فى الشمال الأفريقى صور الإنسان، إلى جانب مشاهد الصيد ، والعديد من الموضوعات الأخرى من حياته وممارساته الطقسية، أنظر للباحث:

«الفن الصخرى فى بلاد المغرب» مجلة المؤرخ العربى، العدد السادس، المجلد الأول، القاهرة ، ١٩٩٨، ص٦٢ وكذلك:

«النقوش والرسوم الصخرية كمصدر للتاريخ» ، الدورية السابقة ، العدد السابع، القاهرة، ١٩٩٩، ص٤١-٦٩ .

* نسبة إلى قفصة فى جنوب تونس .

ويدخل ضمن هذا الرأى ، موضوع صناعات حجرية عثر عليها أحد المشتغلين بعصور ما قبل التاريخ فى مصر وهو الفرنسى فينيار Vignard[٣]، بالقرب من مصنع قصب السكر فى نجع حمادى بصعيد مصر . وأسماه لذلك بموقع (حقل القصب) Champ de Bagasse وكان وجود نسبة كبيرة من المحتات، أهم ما يميز هذا الموقع. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الأداة هى أداة الصناعات الأورنياسية المميزة.

وكان أن نسب فينيار الموقع المذكور إلى الصناعة الأورنياسية الأوربية، على الرغم من أن فينيار لم يعثر فى موقعه هذا على أى أثر لمحاولات نقش على قطع عظمية، بل لم يعثر أصلا على مثل هذه القطع.

بل إن فينيار ذهب فى تأويلاته المتعلقة بموقع نجع حمادى إلى حد القول بأن أصحاب هذا الموقع ليسوا أصليين، وأن أدوات نجع حمادى إنما هى ذات علاقة بقفصية تونس، وبالأدوات الأورنياسية الأوروبية بمعنى أنها جميعا صناعات من أصل واحد، يرجع أصحابها فى أصولهم إلى آسيا، الذين أخذت هجرتهم وجهتين: وجهة فى اتجاه أوربا عن طريق وادى الدانوب والنمسا حيث أوجدوا الأورنياسية الأوربية. ووجهة أخرى نحو سوريا . وبالنسبة لقفصية تونس فإنها جاءتها إما عن طريق شبه الجزيرة الإيطالية- صقلية- تونس، أو عن طريق الشرق من سوريا. أما بالنسبة لموقع نجع حمادى فإنه يرجح قدوم أصحابه عن طريق سوريا- فلسطين- مصر، دون استبعاد للطريق الآخر.

وهكذا صار علينا أن نتخيل العالم القديم فى ذلك الزمان وقد غدا ساحة مفتوحة خالية تمرح فيها تلك القبيلة الأورنياسية كيف تشاء!

ويدخل ضمن الربط بين ما هو موجود فى أوربا وبين ما هو فى الشمال الأفريقى، ما عرف بالمشكلة السبيكية ، نسبة إلى موقع برج S'baika جنوبى مقاطعة قسنطينة بالجزائر ، حيث عثر ريجاس Rugasse[٣]، على عدد وفير من الأدوات الحجرية (٨٠٠٠ قطعة تقريبا)، عرفها ريجاس على أنها تقنية تصنيع جديدة تمثل تطورا خاصا فى صناعة قبضة اليد Coup de poing الأشولية – صناعة الباليوليتى الأسفل- إلى الأداة الورقية الشكل السوليترية، التى هى ثانى مراحل الباليوليتى الأعلى الأوروبى، دون المرور بالصناعات الموستيرية والأورنياسية .

وقد واجه هذا الرأى استهجانا واسعا من قبل أغلب المشتغلين بعصور ما قبل التاريخ للشمال الأفريقى ، أمثال فوفريى Vaufrey وبالو Balout واليمان Alimen. الذين أشاروا إلى غياب الأدلة الكافية للمجموعة الحيوانية، مما يشكك فى الوضع الطبقى للسبيكية [٥].

وربما كانت آخر الآراء ، ما أثاره الباحث الفرنسى بلارى Pallary، من بلبلة فى تعريفه لأدوات حجرية، كان قد تم الكشف عنها فى مواقع أفريقية على الساحل الأطلنطى ، ثم تبين أنها تنتشر فى مواقع ساحلية أخرى، تمتد غربا من ساحل الأطلنطى إلى خليج قابس شرقا فى تونس *. وقد اعتقد بلارى أن هذه الصناعات الحجرية ذات علاقة بصناعات أخرى فى الجنوب الأسبانى، لذا أراد تمييز سمتها الجديدة، فأطلق عليها اسم الصناعات : Ibéro- maurusien ويتضح من تركيب الاسم الرغبة فى الإيحاء بوجود علاقات تقنية بين ما هو فى جنوب أسبانيا وما عثر عليه على سواحل المغرب، وهذا ما ثبت خطأه فيما بعد، ورغم تراجع بلارى عن أرائه، إلا أن التسمية ظلت مستعملة بحكم قانون الأسبقية(٦).

* * *

وننتقل بعد ذلك إلى مشكلة ترتبط بهذا الموضوع ، هى مشكلة ذلك الانتشار الواسع للأدوات القزمية أو الميكروليثية Mécrolihiques، الذى غطى كل من أوربا وشمال أفريقيا وغرب آسيا، الأمر الذى أثار الافتراض بوجود موطن أصلى خرجت منه إلى بقية مناطق العالم القديم. وكان هذا الموضوع ضمن أهداف المؤتمر الدولى للأنثروبولوجيا وآثار ما قبل التاريخ الذى عقد فى جنيف سنة ١٩١٢ .

وفى هذا المؤتمر أعلن عالم ما قبل التاريخ الفذ بريل Breuif أنه إذا ما أريد البحث عن أصل هذه الصناعات القزمية، فإنه يتعين علينا البحث عنها فى مكان ما جنوب البحر المتوسط(٧). والذى حدث بعد هذا المؤتمر وهذا الإعلان بحوالى عقد من الزمن، أن كشف فينيار Vignard فى وادى كوم أمبو بصعيد مصر، عن أشهر مواقع ما قبل التاريخ فى مصر بالقرب من قرية «سبيل» الواقعة فى هذا الوادى، وهو ما عرف فيما بعد بالصناعات السبيلية(٨).

وترجع أهمية هذا الكشف إلى أنه جاء على مستويات ثلاث متدرجة ومتوالية فى الزمن، حيث يعبر المستوى الأول عن صناعات موستيرية صميمة- باليوليتى أوسط- والمستوى الثالث عن أدوات ميكروليثية هندسية الشكل- باليوليتى أعلى- أما المستوى الثانى فيمثل الانتقال من الموستيرية إلى الميكروليثية.

---

* هذه الصناعات التى ارتبطت بمواقع ساحلية كونت مع الصناعات القفصية القائمة فى الداخل، ما يعرف فى حضارة المغرب القديم بمرحلة آل épipaléolithique وهى تمثل المراحل الختامية للعصر الباليوليتى الأعلى للشمال الأفريقى.

ويتضح فى «سبيل» بما لايدع مجالا للشك، التطور التقنى من صناعات الشظايا فى الباليوليتى الأوسط، إلى صناعات شفرية فى الباليوليتى الأعلى، وهو الوضع الذى يجعل من «سبيل» الموقع الوحيد فى العالم، الذى يجسد هذا الوضع الطبقى الصريح.

ويبدو أن فينيار Vignard استحضر دعوة بريل Breuil السابقة إذ يعلن أنه عثر فى «سبيل» على أصل الأدوات الميكروليثية فى العالم. وأنه من «سبيل» خرجت هذه الصناعات إلى سوريا وأوربا وأفريقيا بل وصلت إلى الهند . وأن صناعات هذه المناطق ليس لها نقاط مشتركة مع المستوى الثالث فى «سبيل» ، بل هى مستقة منه.

والحقيقة الماثلة هى أنه منذ اكتشاف فينيار فى «سبيل» لم يبق أمامنا فى مجال الكشف العلمى لعصور ما قبل التاريخ أكثر مما عثر عليه فى كوم أمبو، الأمر الذى يجعل من آراء فينيار عن «سبيل» أمرا من المحال تجاهله .

* * *

ثم كان أن حلّت مرحلة العصر الحجرى الحديث وظهور الفخار فى الشمال الأفريقى .

ويكتسب الفخار فى الدراسات القديمة، أهمية خاصة، تميزه عن غيره من المواد الأخرى، كالحجر أو العاج أو العظم ، فهذه كلها مواد صلبة تفرض خصائصها الطبيعية، على الصانع، حتى مع نهجه نهجا معينا أو ابتداعه لتقنية خاصة فى تصنيعها. وبسبب ذلك كثيرا ما تتقارب تقنيات التصنيع وتتشابه الأدوات، مما يكون مدعاة لكثرة التفاسير.

والواقع أن هذا يوضح لماذا تكثر الآراء وتتعدد أحيانا وقد تتضارب أحيانا أخرى عند تفسير طبيعة هذه المواد المصنوعة من الحجر أو العظم أو ما شابه ذلك. وبالنسبة لأقطار الشمال الأفريقى فإنها شهدت مثل هذه القضايا الخلافية، لأنها قامت فى أساسها على اتخاذ مادة الحجر عنصرا رئيسيا فى تطورها الحضارى. ولتفسير ذلك نقول إنه لكى يتم تصنيع الآنية الفخارية ، فإنه يتعين على الصانع أن يقوم بتصنيع عجينة لينة، يتم تجميع عناصرها من مواد محلية فىْ أغلب الأحيان. والذى يحدث أن هذه العجينة تكون بين أصابع الصانع قابلة لأن يشكلها حسبما يتراء له. فعملية التشكيل هنا غالبا ما تكون قريبة من نفسية الصانع ، حيث يطبع فيها شخصيته وأحاسيسه ، وربما انفعالاته الوجدانية، وسرعان ما يتكون فى جلاء نمط محلى يسود الإقليم، ويكون واجهة له ثم يصبح من اليسير التعرف على الأنماط المختلفة وتحديد مناطقها، ورصد أى أنماط غريبة ومعرفة أصولها.

ونستطيع أن نطبق هذا فى حالة فخار المغرب القديم. حيث فى الإمكان، التعرف فى جلاء وكثير من اليقين ، على العناصر الأجنبية الوافدة من خارج أقاليم المغرب وتحديد مواطنها.

والحقيقة الماثلة فى حالة فخار المغرب القديم، أنه رغم اتساع رقعة أقطار الشمال الأفريقى، إلا أن الفخار الذى خلفته جاء فخارا خشنا ضعيف البهجة فى الغالب الأعم. وقد عزت الدراسات التى تناولته سبب ذلك إلى منافسة بيض النعام. ويتضح ذلك بشكل جلى فى الأقاليم التى كانت ضمن نطاق الحضارة القفصية، إذ يبدو أن أصحاب هذه الحضارة كانوا شديدى التمسك بتقاليدهم التى ورثوها قبل ظهور الفخار فى العصر الحجرى الحديث. ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن طائر النعام يعد من الطيور الحيوانية التى تأكد وجودها فى الشمال الأفريقى، ربما حسبما يعتقد فوفريى Vaulre منذ مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل[٩]. والواقع أنه قلما تخلو طبقة أثرية فى بلاد المغرب من تواجد بيض النعام أو قشوره. ويبدو أن هذا الطائر كان من أوائل الأنواع التى تم استئناسها وتربيتها فى حظائر خاصة.

والواقع إن الفخار فى المغرب عانى كثيرا من منافسة بيض النعام، فلم تخرج الأوانى فى تكوينها عن القاع المخروطى، مما يصعب تصور الكيفية التى كان يتم بها تثبيت الإناء فى وضع مستقر . على أنه كان يتم حمله داخل سلة من نسج الحلفاء ويعلق، وربما كانت هذه هى الطريقة التى كان يتم التعامل بها مع بيض النعام، الذى استخدم كقوارير بشكل شائع فى مناطق المغرب. ويبدو أن إنسان المغرب ألف مثل هذه العادة، ولم يشأ أن يبدلها وهذا قد يفسر البطء الشديد الذى اتسم به تطور الفخار المغربى.

والغريب أن كلا من الفخار وبيض النعام تبادلا تأثيرات سلبية ، ففى مرحلة العصر الحجرى الحديث أخذ دور بيض النعام فى التضاؤل ، ونتيجة لظهور تقنية جديدة ذات إمكانيات إضافية تتمثل فى الفخار، وفى المقابل عانى الفخار من منافسة بيض النعام، مما كان سببا فى بطء تتطوره ، فجاءت تكويناته محدودة للغاية ، تفتقر إلى دقة التنفيذ وقلة أساليب الزينة وفى الحقيقة أن هذه هى الصفات التى اكتسبها الفخار المغربى داخل نطاق الأقاليم، وخضعت للتأثير القفصى. أما بعيدا عن هذه المناطق، فى اتجاه الشمال نحو الساحل فى الجزائر، وامتدادا غربا حتى سواحل الأطلنطى فى المملكة المغربية أى بعيدا عن التأثير القفصى، فإن هذه المناطق كانت أكثر استجابة ومسايرة للتطور وتأثرت بالمأثورات الأجنبية .

وهكذا أمكن تحديد الطبقات الأثرية، فى الجهات التى أشرنا إليها، والتى ثبت بشواهد أثرية يقينية أنها تأثرت بالفعل ، بما كان يدور على الساحل الآخر المقابل، فى الجنوب الأسبانى، وعلى وجه الخصوص ساحل المرية*.

ويعبر فخار هذه الأماكن عن تنوع ملحوظ للنماذج ، فجاءت الآنية بعيدة عن الشكل المخروطى، تحمل تقنيات جديدة لتحقيق زينة الجدران(١٠)، وجرى الحديث عن نوع من الفخار حمل اسم الفخار الكارديالى Cardiale، نسبة إلى وحدة الزينة التى على جدران الآنية، والتى تمت بواسطة طبع صدفة ال Cardium . كما عرف نمط آخر من الفخار سمى بالفخار ال Cannelée حيث يتم عمل حزوز عريضة على جدار الآنية فتبدو فى شكل قنوات هى إلى التجاعيد أقرب.

وهناك نمط ثالث، ربما كان أكثر شهرة من سابقيه فى حوض البحر المتوسط، ويعرف بالفخار الكأسى Campaniforme، وفيه تكون الآنية كالكأس أو الجرس المقلوب، وربما يلاحظ أن هذا النوع أخذ تسميته من شكل الإناء وليس من أسلوب الزينة، وإن كان لزاما على الصانع اتباع أسلوب زينة محدد بواسطة المشط، مع استخدام وحدات خاصة على جدار الإناء أصبحت مرتبطة بهذا النوع(١١).

أما على الساحل الأطلنطى ، فلابد من الإشارة بصفة خاصة، إلى جبانة الكفن El Kiffen من نواحى تماريس، حيث تم الكشف عن مقبرة جماعية، يمثل فيها الفخار كمنقولات جنائزية ، وهى حالة فريدة تخالف ما وجدت عليه بقية الطبقات الأثرية فى دول المغرب العربى القديم: تونس ، والجزائر ، والمملكة المغربية. وأمكن الحصول من هذه المقبرة ، على عدد من الأوانى كبيرا نسبيا (٥٨ آنية سليمة أو يمكن ترميمها) وقد لوحظ أن الأوانى لها أشكال جديدة، غير ما كانت عليه فى بقية مواقع الشمال الأفريقى. ومن المعتقد أن هذه المقبرة، وربما كانت تعود زمنيا إلى العصر الحجرى الحديث المتأخر(١٢).

وجاءت حالة مقبرة الكفن، حالة فريدة . ولذا تحاول الدراسات البحث عن أصل هذا الفخار وعن مدى انتشاره . وإن كان الاعتقاد الغالب أنه يعود فى أصوله إلى الساحل الأسبانى وخاصة ساحل المرية .

---

* جاء فى تحديد أشهر هذه الطبقات الأثرية فى إقليم وهران: كهف أشكار Achakar والخويل Elkhiril ومحطة كاحل Car Kahel وكهف تحت المحطة Caf that el gar ، أما فى الساحل الأطلنطى فهى جبانة الكيفن ElKiffen (تماريس) والمهدية ودار السلطان .

خاتمة البحث

إن أقطار الشمال الأفريقى العربية كانت بمثابة العالم القديم الحقيقى فيما قبل العصور التاريخية وقبيل انبثاق الحضارات القديمة. ذلك أنها كانت تعيش حضارة حقيقية بتقنياتها المبتكرة فى مجال تصنيع الأدوات، وعندما شارفت هذه العصور على نهايتها تفجرت فى أرجاء هذا العالم الخاص، طاقة فكرية وفنية إبداعية، هى الفريدة من حيث ثراء موضوعاتها أو تعدد أساليبها .

وقد أظهر الواقع الأثرى لمجتمعات شمال أفريقيا أنها كانت لها حضارتها الخاصة، وأن هذه الحضارة كانت ذات خصوصية انفرادية إلى حد ما. والملاحظ على هذه المجتمعات أن ميلها نحو عقد الصلات، إنما كان فى حدود الشمال الأفريقى- عالمها الخاص- دون إبداء الرغبة فى النظر إلى ما وراء البحر المتوسط، أو معرفة ماذا يدور شماله*.

قد يكون السبب فى ذلك، راجعا إلى عظم مساحة الشمال الأفريقى، وتجاور مجتمعاته، وتنوعها وسهولة المسالك ووفرتها فيما بينها، مما أغناها عن التفكير فى مخاطر ركوب البحر!

ويمكن القول بقدر كبير من اليقين، إنه فيما قبل العصر الحجرى الحديث العام للشمال الأفريقى، عاش كل من العالمين : الشمال الأفريقى والأوروبى، حياته المستقلة، منفصلا عما يدور فى العالم الآخر. ولايسعنا فى هذا الصدد إلا الأخذ بالأسباب البيئية واختلافها فى كلا العالمين. فقد عاشت أوربا تحكمها ظاهرة عصور الجليد التى يتخللها فترات دفء، وهذه أو تلك كانت تغير من الوسط البيئى بكل عناصره الحيوانية والنباتية، وكان على الإنسان أن يشكل استجاباته بما يتلاءم ومقتضيات الأجواء .

وشواهد الأحوال تظهر أن إنسان العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوربا، الذى عاصر آخر عصر جليدى، مع اضطراره إلى المكوث طويلا فى الكهوف، اكتملت مداركه الفكرية، وتكونت هواجسه الدينية! وتملكته الرغبة فى التعبير، فأخرج فنا راقيا ورائعا، بلغ به ذروة لم يبلغها غيره فى أى مكان آخر فى زمانه .

---

* ربطت كثير من الدراسات بين صلات وعلاقات حضارية بين مناطق تقع فى قلب الصحراء حاليا، كمنطقة تبستى وبين مراكز حضارية فى وادى النيل كمرمدة والفيوم ومناطق أخرى (مصر) وحضارة الخرطوم (السودان) .

أما فى شمال أفريقيا فقد كان الحال مغايرا تماما، إذ تتابعت على أقاليمه ظاهرة مناخية مختلفة عما فى أوربا، عصور من المطر الغزير، يفصلها فترات جفاف، وكان يمكن فى مثل هذه الحالات، أن يحدث لمظاهر الحياة الحيوانية والنباتية أن تهاجر إلى الجنوب، لتعاود رجوعها عند تحسن ظروف المناخ. وكانت الكهوف الكثيرة التى تميز بها الشمال الأفريقى بشكل عام، ملاذا نموذجيا لإنسان هذا الوسط، فلم تنقطع حضاراته، وداومت مجتمعاته على البقاء.

ومع حلول مرحلة العصر الحجرى الحديث، وما جاءت به من وفرة فى إنتاج الطعام، دعت الحاجة إلى تصريف الزائد منه .. ومقايضته ببعض الاحتياجات الأخرى الضرورية ، فى الوقت الذى سمحت به هذه المرحلة المهمة فى تطور المجتمعات، أن يقوى التنظيم الاجتماعى للكيانات القائمة، أى بمعنى أشمل أنه قد تم تهيئة الأسباب لعقد الصلات الخارجية وتبادل العلاقات عبر مناطق لم تكن مألوفة من قبل.

والواقع أنه لايمكن الجزم بالكيفية التى تمت بها هذه الصلات أو متى تمت على وجه التحديد، وعما إذا كانت قد تمت بواسطة اتصال مباشر بين مناطق جنوب أوربا وشمال أفريقيا أم أنها تمت بشكل غير مباشر، وهو على ما يبدو الأرجح . ونحن فى هذا الصدد لانستطيع أن نغفل نمو الدور الفينيقى فى حوض البحر المتوسط، وتزايده مع ازدياد نشاط المدن الفينيقة، وخصوصا فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد. وانتشار المحطات الفينيقية فى جزر وعلى شواطىء البحر. خاصة أن من حسن الطالع أن يترك لنا الفينيقيون دليل وجودهم على أرض الشمال الأفريقى ربما فيما يعتقد أنه حوالى ١٢٠٠ ق.م *. ويبدو أن الصلات تمت بين جنوب أوربا، وشمال أفريقيا فى شكل تبادل لسلع يسهل حملها عن طريق التجارة، أو استعارة تقنيات تتعلق بصناعة الفخار وتزيينه. ولكن حالة مقبرة الكفن ElKiffen، تشير إلى أن هذه الصلات أخذت شيئا فشيئا طابع علاقات محكية بين العالمين، وخصوصا عندما نجد ضمن مقتنيات عثر عليها فى بعض المواضع أشياء لايتضح لها استخدامات عملية، أو منحوتات على هيئات رمزية، كما فى حالة أشكال كهف أشاكار أو كهف المعبودات[١٣]، أو صنعت من مواد جلبت من خارج أقاليم المغرب، مما يعنى أن أقطار المغرب العربى القديم، قد خرجت من عزلتها الاختيارية السابقة، وأخذت فى الاندماج مع التيارات الثقافية الحديثة التى كان يموج بها عالم البحر المتوسط حينذاك.

---

* تمثلت هذه الشواهد فى بعض الأدوات المعدنية عثر عليها فى طبقات أثرية على الساحل، وكذا فى طبقات أثرية فى المغرب الأقصى وبين النقوش الصخرية لجبال أطلس العظمى فى موقع مراكش.

Vaufrey, R., Op. cit, p. 339 . Alimen, H., Op. cit, p. 90 .

الهوامش

1- El Cherif, H., " Outils Lithiques a Danfik" (Nagade), A.S. A.E., t. LXXII, Le Caire, 1993, p. 100, pl. VI no . 5et 6 .

2- Morgan, J. de., Capitan , L. et Boudy, P. Etude sur les stations prehistoriques du sud tunisien. Revue de l'Ecole d' Anthropologie t. 20, L 910, pp. 105-196, 206-228, 267-286, et 335-347, t. 21, 1911 , pp. 217-228 .

3- Vignard, E., " Une station Aurignacienne à Nag Hammadi". (Haute Egypte) Station du champ de Bagasse. "B. I.F. A.O., XVIII, 1921 .

4- Reygasse, M. Les ages de la Pierre dans l'Afrique du Nord (Algerie) . Une brochure in -8 de 34 pages, extraite de " Histoire et Historiens de l' Algeria". Chapitre II. Collection du Centenaire de l'Algerie (1830-1930), publiee par le soin de la Revue historique , pp. 37-70 1931 ,

5- Vaufrey, R., Prehistoire de l'Afrique, t. I, Le Maghreb, Paris 1955, pp. 121-123 .

- Balout, L., Prehistoire de l'Afrique du Nord , Paris, 1955, p. 454 .

- Alimen, H., Prehistoire de l'Afrique, Paris, 1966, p. 65 .

6- Vaufrey, R., Op. cit., p. 257 .

7- Breuil (H.) Les subdivisions du Paleolithique superieur et leur signification . Congres international d' Anthropologie et d' Archeologie prehistoriques. Compte rendu de la XIV Session, Geneve, 1912, pp. 165-238 , 47 figures.

8- Vignard, E., "Une nouvelle industrie lithique Le sebilien ", B. I. F A.O., XXII, 1923 , pp. 1-76, avec 24 pl .

9- Vaufrey , R., Op. cit., p. 383 .

10- Camps- fabrer, H., MATIERE ET ART MOBILIER dans la prehistoire nord - Africaine et Saharienne , Paris, 1966, p. 391 , ff.

11- Tarradell, Notica sobre la excavaction de Gar Gahal. Tumude, II, 1954, pp. 344-358 .

- Id., Avance de la Primera campana de excavaciones en Caf Taht el Gar Ibid.. III, 1955 , pp. 307-325 .

- Id., Gar cahal y su aportacion al concimiento de la Edad del Bonce en el extremp

occidental del Mediterraneo- IVe Congr . nacion . de Arqueol, Burgos, 1955, pp. 101-112 .

- Id ., Caf Taht el gar . Cueva neolotica en la region de Tetuan (Marruecos) Ampuries, 19-20 , 1957-1958 , pp. 137-166 .

وكذلك أعمال A. Jodin فى:

- Jodin, A., les grottes d'El-Khril a Achakar, Bull. d'Archeol. Maroc . t., 3, 1958-1959, pp. 250-313 .

- Id., Nouveaux documents sur la civilisation du vase campaniforme au Maroc. XVIe congr. prehist . De France, Monaco, 1959, pp. 677-687 .

بالإضافة إلى :

- Camps, G., en collaboration avec Souville , g., La civilisation du vase campaniforme (intervention au collogue atlantique de Brest, Septembre 1960) . Les civilisations atlantique du Neolithique a l' age du Fer , Rennes, 1963 .

12- G. BAILLOUD et P. MIEG DE BOOFZHEIM , avec la collaboration de H. BAI. FET et Ch. KIEFER, La necropole neolithique d'El- Kiffen pres des Tamaris (Province de Casablanca, Maroc). Libyca, Anthrop. Prehist. Ethnogr., t. XII, 1964 , pp. 95-171.

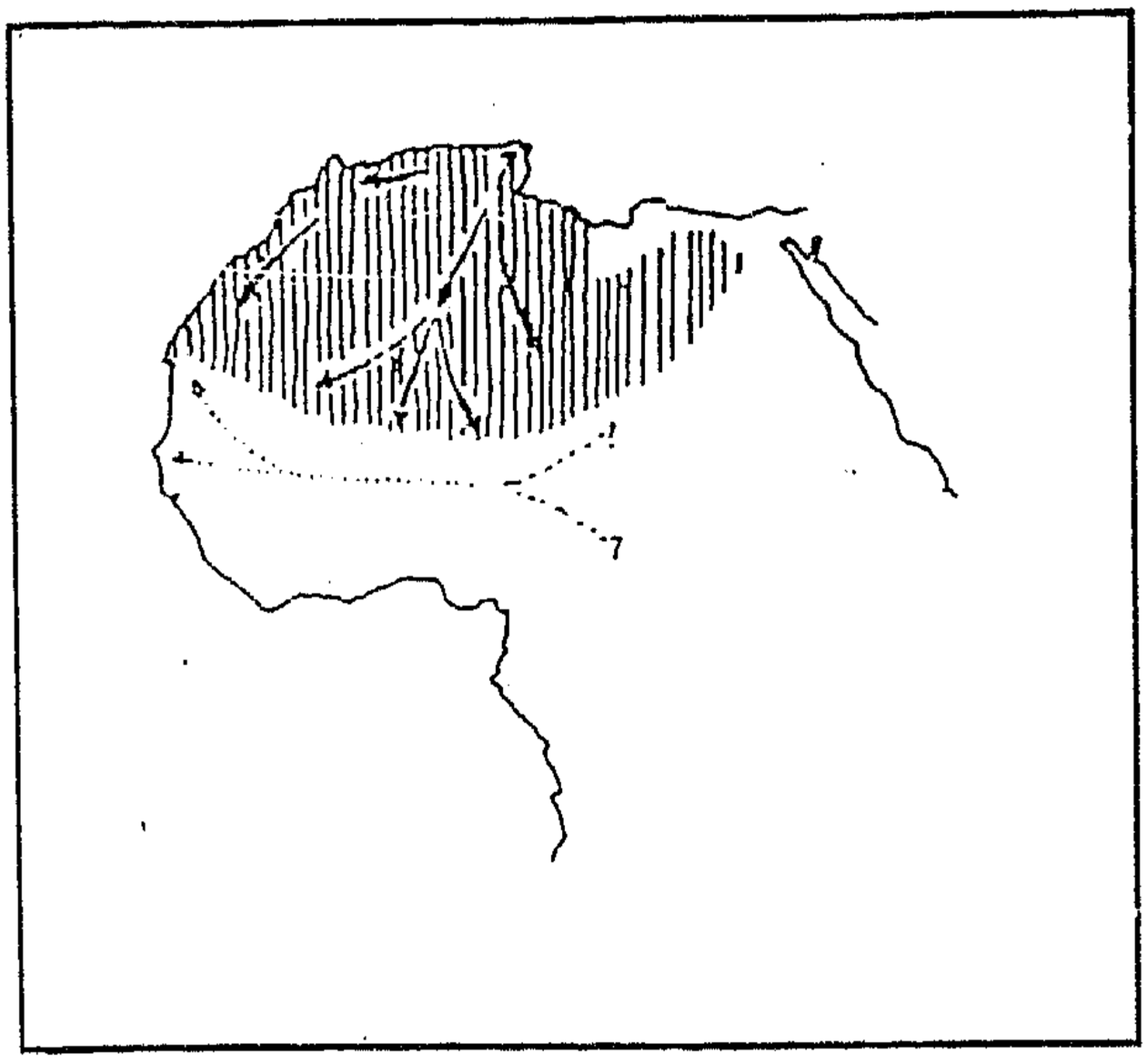

مناطق عاتيرية

مسار الحضارة العاتيرية (افتراضي)

مسار المؤثرات الحضارة الموستيرية الجنوبية . عن : J. Tixier

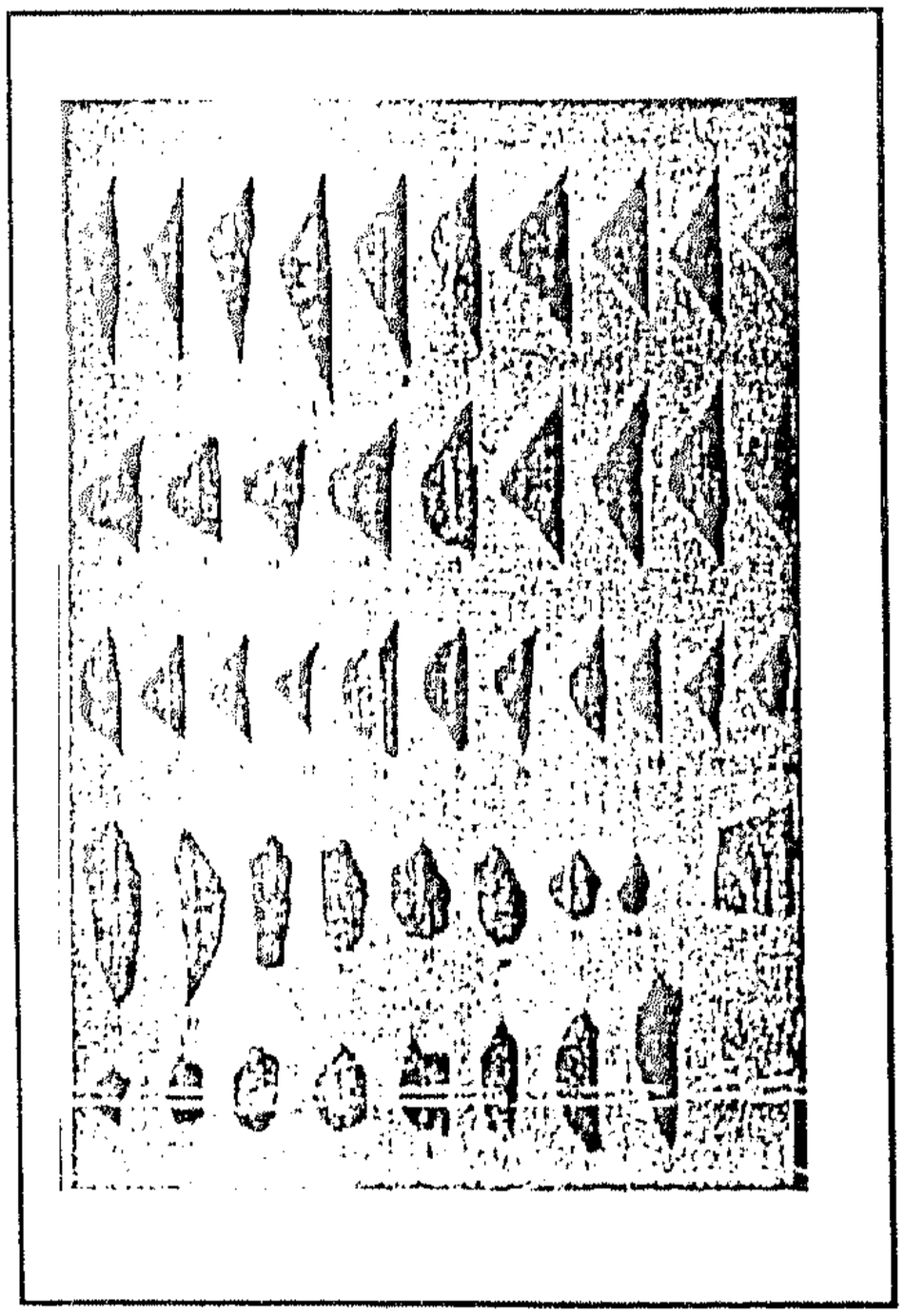

الصناعات القفصية وقد كثرت بها المحتات (الصفان الأخيران) . عن : Vaufrey

نماذج من الفخار المحلى للمغرب القديم
ويلاحظ انعدام أو قلة الزينة وبساطة الإلهام وقلة حذق التنفيذ.

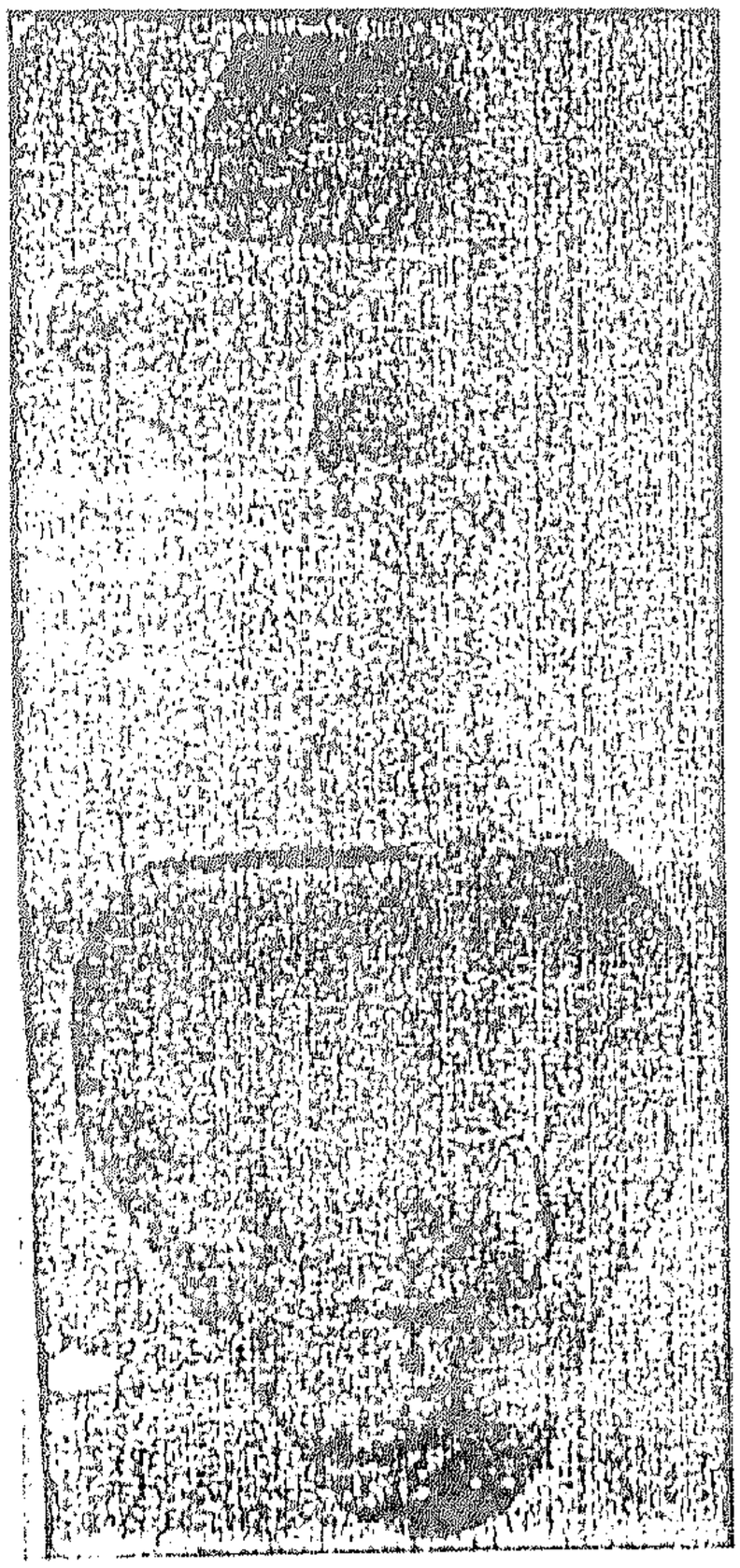

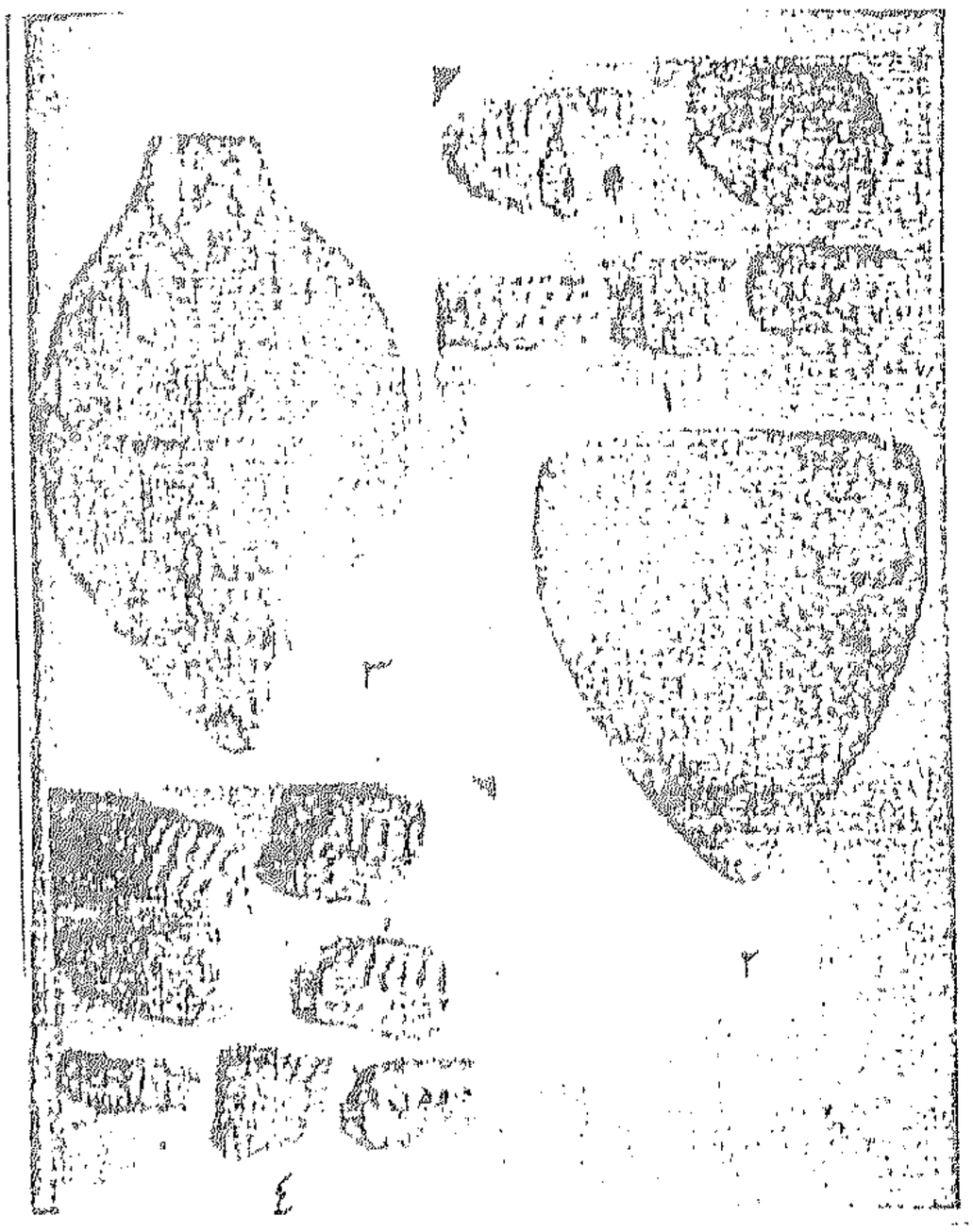

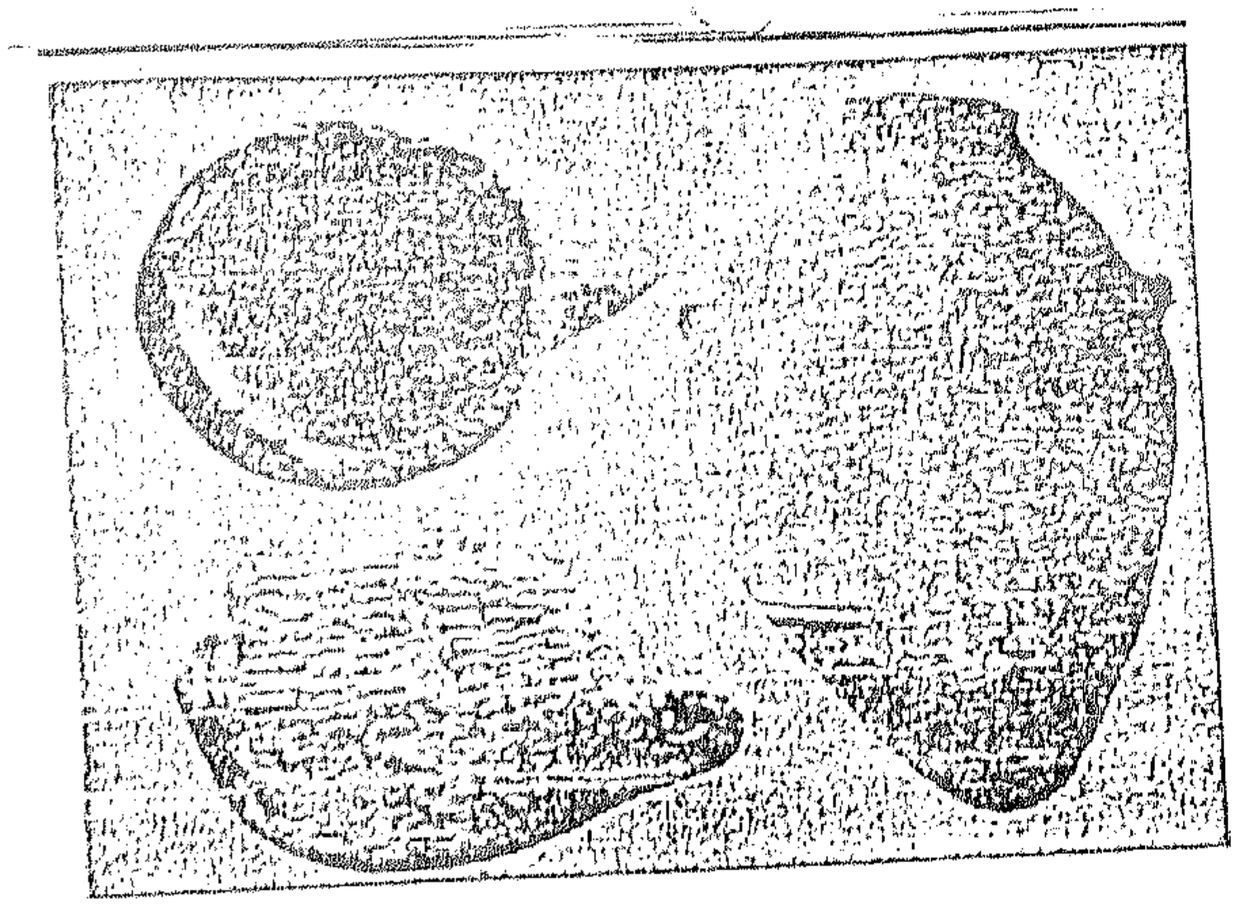

أشكال هذه اللوحة واللوحات التالية عن : H. Camps- Fabrer

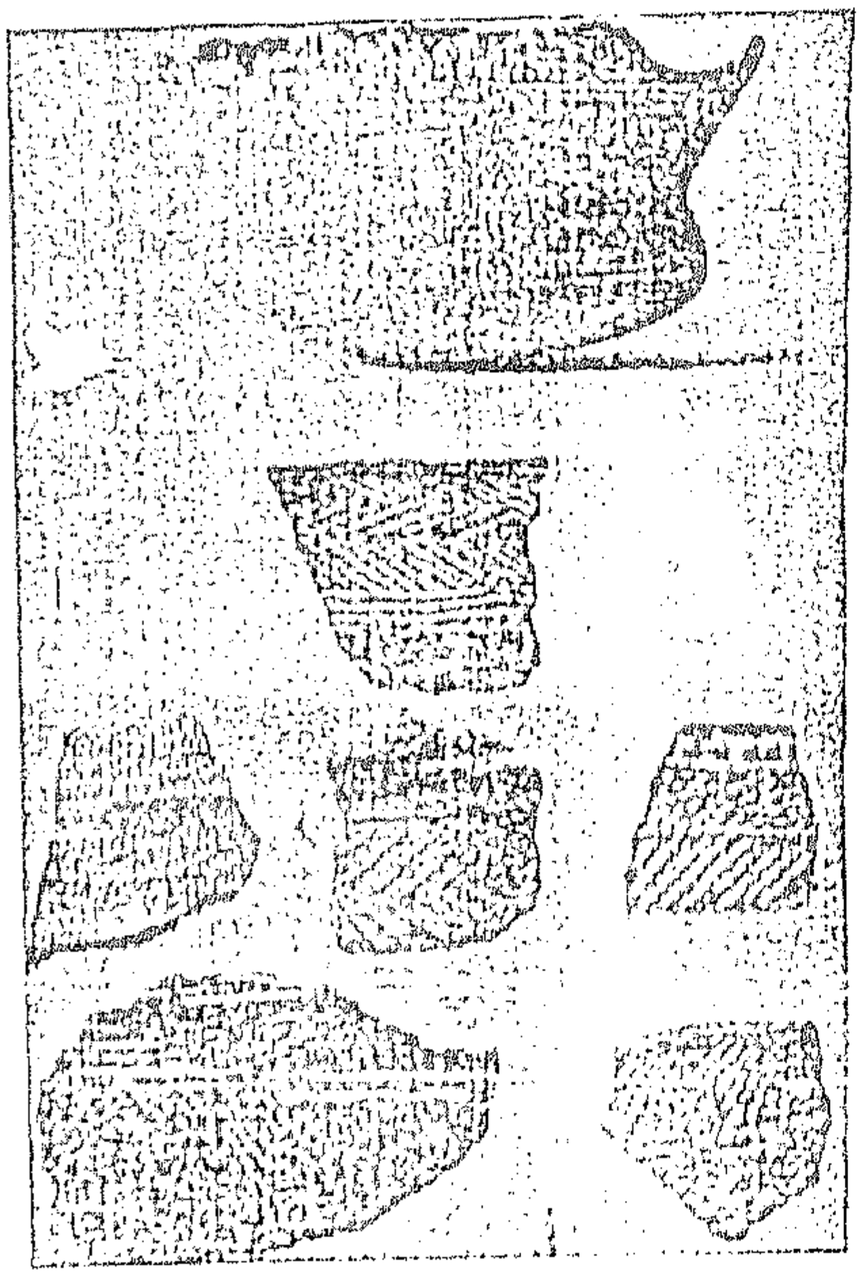

آنية دار السلطان

وهى النموذج الوحيد الكامل من الفخار الكأسى

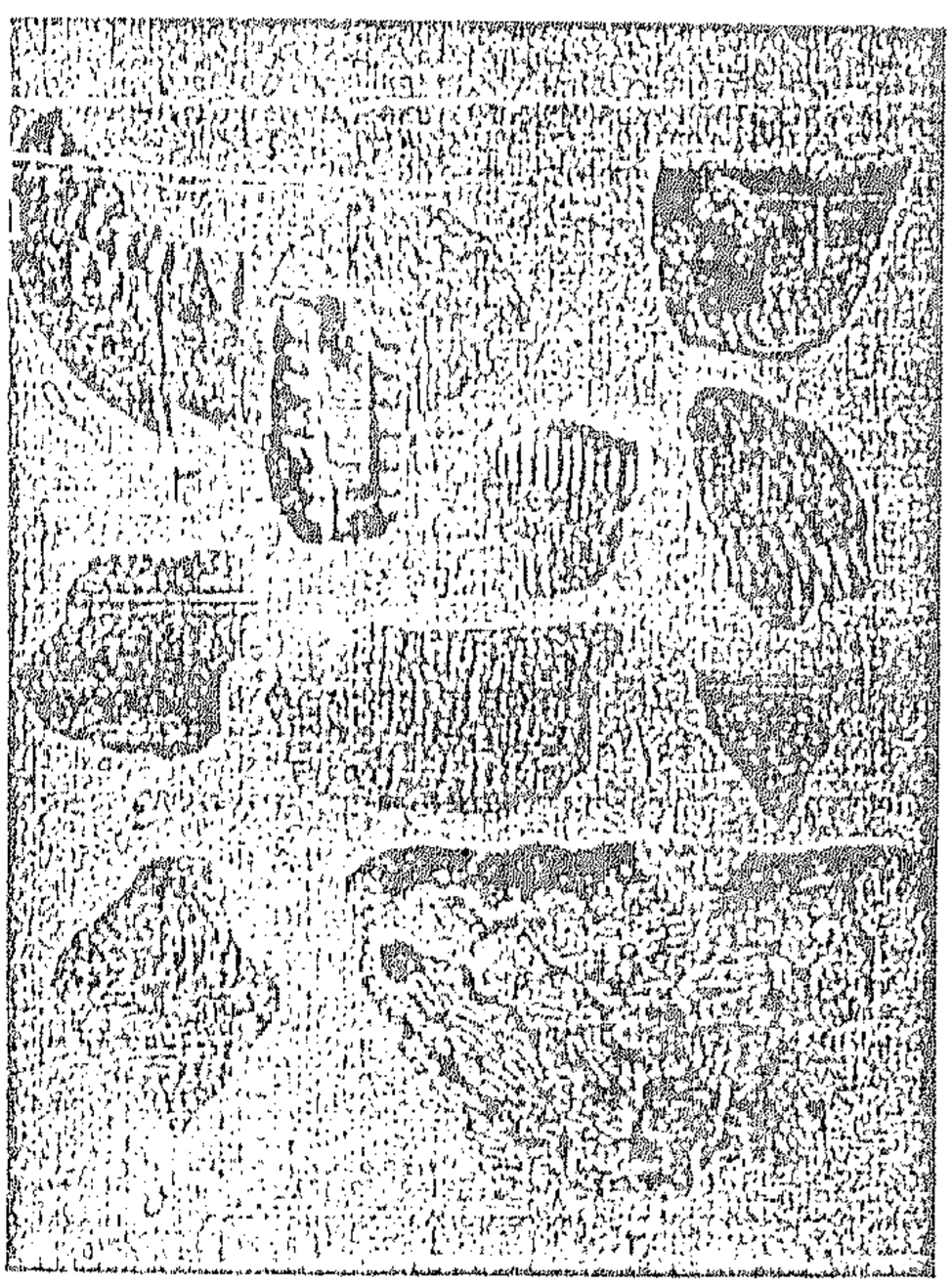

فخار طبقة الخريل- أشكار

الزينة تمت بواسطة صدفة الكارديوم

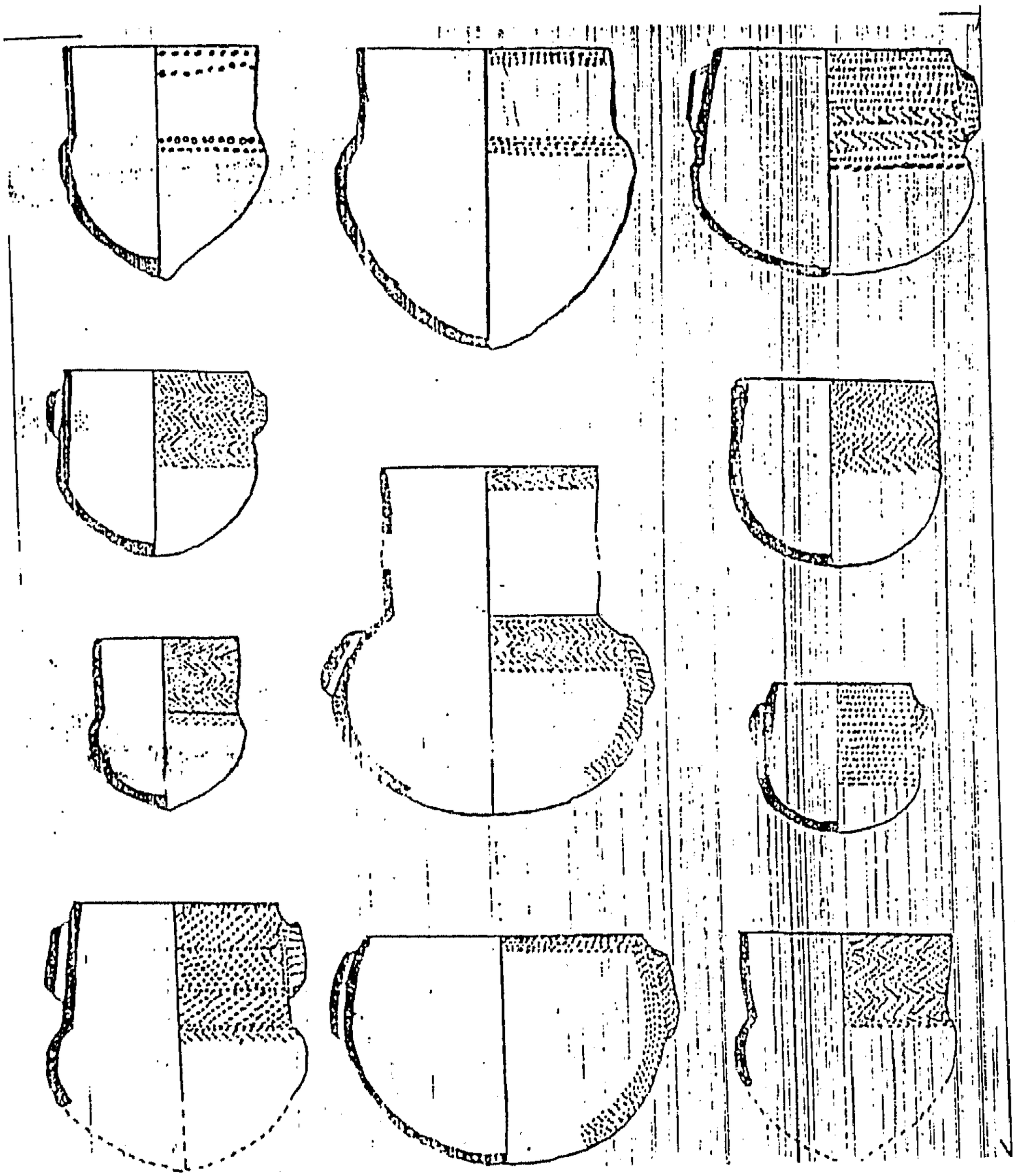

فخار المقبرة الجماعية فى الكفن

ويتميز بتنوع تكويناته وإن كانت الزينة ذات رتابة ملحوظة

وتمت بواسطة المشط إلا استثناءات قليلة واللازمة قليلة التنوع

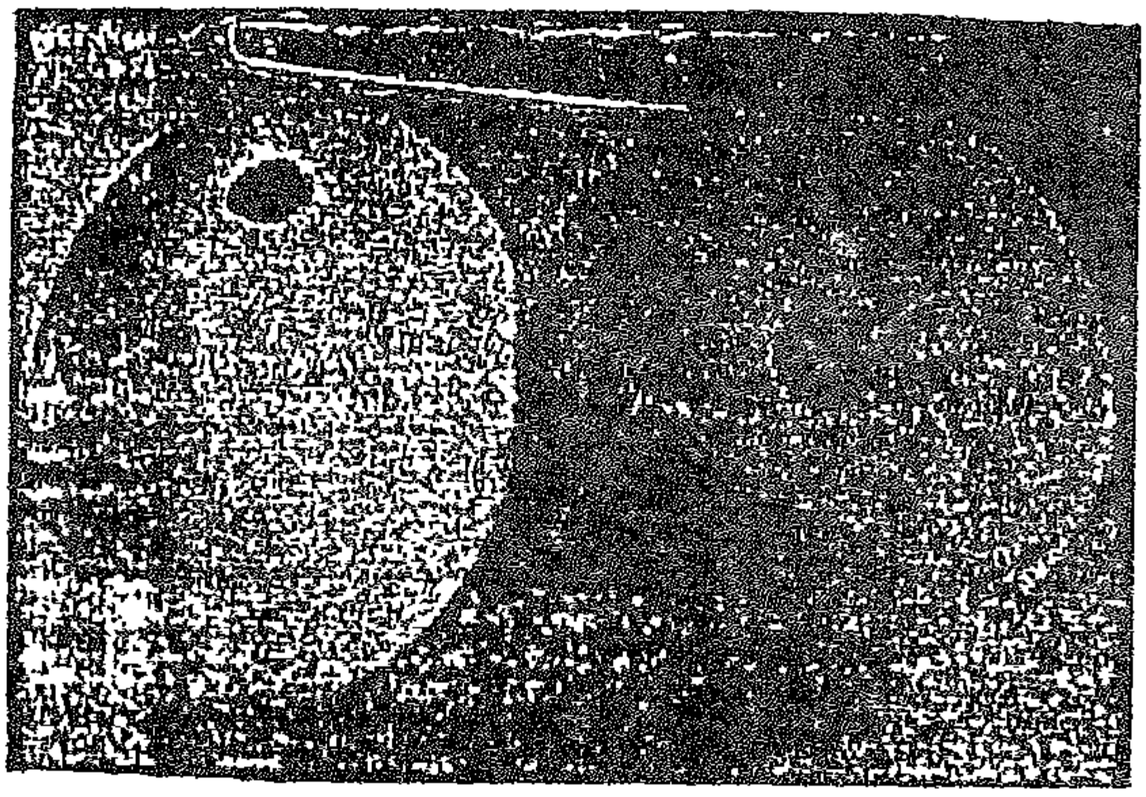

استخدام إنسان الحضارة القفصية بيض النعام كقوارير بعد ثقبها وتفريغ ما بها، وكان ذلك قبل توصله لصناعة الفخار.

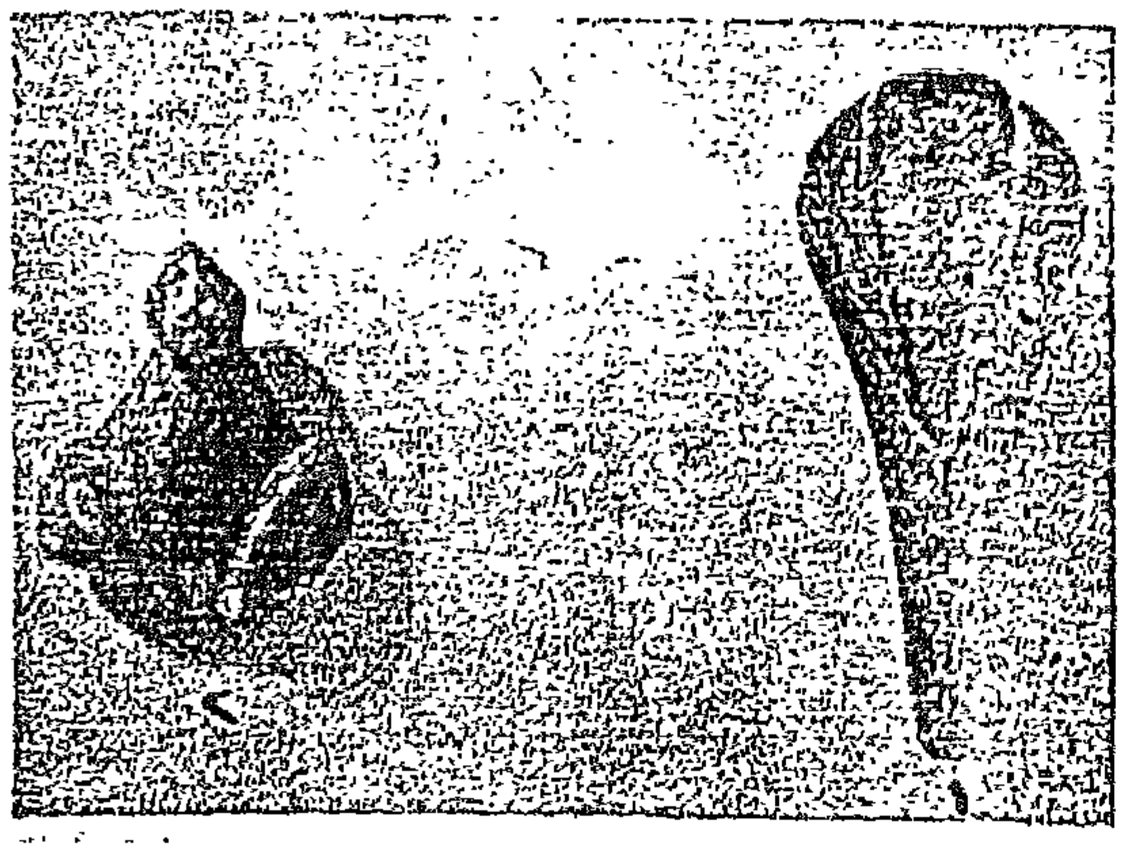

تمثل أشكال كهف المعبودات (أشاكـــار) تأثر بعض مناطق المغرب القديم بالتيارات الثقافية التى سادت عالم البحر المتوسط. وتؤخذ على أنها إما تماثيل أمومة أو رموز قضيبية ترتبط بمعنى الخصوبة

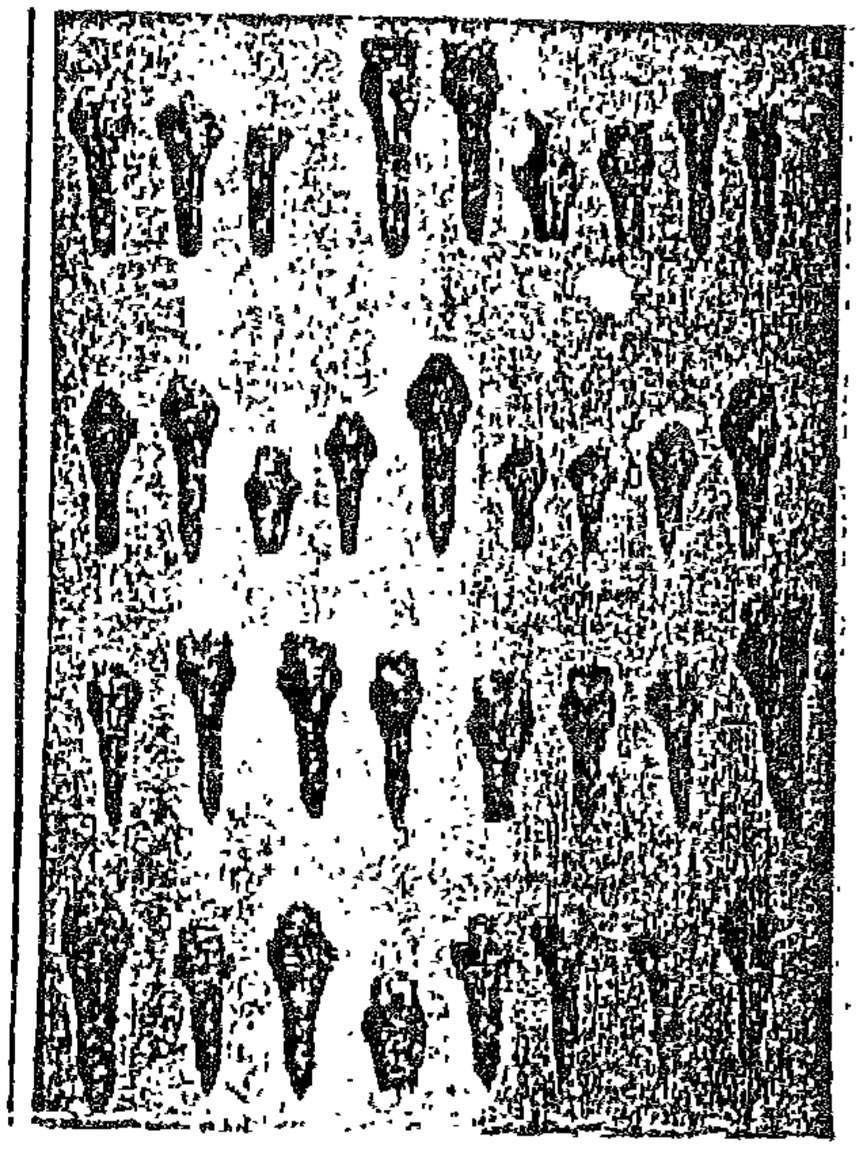

تمثال آخر من الحجر يشبه أشكال أشاكار مع تمثال آخر (على اليسار) ولكنه أخذ هيئـــة مغايرة (هيئة تماثيل بوذة؟)